

المسألة الثانية

حاجتنا إلى مقاصد الشريعة

إذا كانت « المقاصد أرواح الأعمال » ^(١) كما يقول إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي ~ ، فإن العجب كل العجب أن يعيش الناس بلا مقاصد ، أي بلا أرواح ، فالفقه بلا مقاصد فقه بلا روح ، والفقيه بلا مقاصد فقيه بلا روح ، إن لم نقل : إنه ليس بفقيه .

والمتدين بلا مقاصد متدين بلا روح ، والدعاة إلى الإسلام بلا مقاصد هم أصحاب دعوة بلا روح .

فأئني نتفقه حقيقة ، ونتدين حقيقة ، وندعو إلى الإسلام حقيقة ؟!

حاجة الفقيه والمتفقه إلى معرفة مقاصد الشريعة :

فأما حاجة الفقيه والمتفقه إلى معرفة مقاصد الشريعة ،

(١) الموافقات (٢/ ٣٤٤) .

فحسبنا في ذلك أن الفقه — حتى في أصله اللغوي — لا يتحقق إلا بمعرفة حقائق الأشياء ، والنفوذ إلى دقائقها وأسرارها ، فليس الفقه — حقاً — سوى العلم بمقاصد التشريع وأسراره .

وفيه يقول العلامة الكبير شاه ولي الله الدهلوي :
« وأولى العلوم الشرعية عن آخرها — فيما أرى — وأعلاها منزلة وأعظمها مقداراً ، هو علم أسرار الدين ، الباحث عن حجج الأحكام ولباتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها ؛ إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع » ^(١) .

وحين تجرد الفقه من مراعاة المقاصد ، ومن بيانها وتوجيه المكلفين إليها فهماً وطلباً ، حينذاك بدأ يتحول إلى مجرد قوانين تتسم بالظاهرية والجفاف والبرودة ، وبدأ يصاب بالشلل العلمي والعملية .

وقد عدَّ الشيخ ابن عاشور : « إهمال النظر في مقاصد

(١) حجة الله البالغة (٢ / ٢١) .

الشرعية» ^(١) واحدًا من الأسباب الرئيسية في تخلف الفقه وجموده ، وقبله نجد الشيخ الشهيد محمد بن عبد الكبير الكتاني يذهب أبعد منه ، حيث يعتبر : « أن من أسباب انحطاط الملة ذكر الأحكام مجردة عن أسرارها » ^(٢) .

حاجة المتدين في تدينه إلى مقاصد الشريعة:

وأما المتدين في تدينه وتطبيقه لأحكام الشريعة ، فإنه - إذا كان فاقداً للمقاصد - يبقى عرضة للسامة والضجر ، وعرضة للتلكؤ والانقطاع ، وقد يتعرض حتى للحيرة والاضطراب ، وأما الإتيان بالأعمال على غير وجهها ودون إتقانها وإحسانها ، فحدث ولا حرج ، وانظر يمينة ويسرة ، فلن ترى غير هذا وذاك إلا من رحم ربك ، وقليل ما هم . وعلى العكس من ذلك ، فإن معرفة مقاصد الأعمال تحرك النشاط إليها ، وتدعو إلى الصبر والمواظبة عليها ، وتبعث على إتقانها والإحسان فيها .

(١) أليس الصبح بقريب ؟ (ص ٢٠٠) .

(٢) ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد (٣٥) .

فمن وجبت عليه الزكاة وهو لا يدري لها مقصداً ، ولا يرى لها فائدة يجنيها ، كان إلى التهرب منها أقرب ، فإن لم يتهرب منها تحايل في تقليلها وتأخيرها ، وأداها من أردى ما يملكه ، وكان مع ذلك مستاء متحسراً .

فإذا وضحنا له ما جاء في القرآن الكريم من أن المزكي يستفيد من زكاته بأكثر مما يستفيدة آخذ الزكاة وقبلة ، وأن زكاته طهارة له وبركة لماله ، وأنه يستحق بها دعاء الرسول والمؤمنين ، وأن ذلك يجلب له السكينة والرحمة ، وجعلناه على بصيرة من قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣] . وجعلناه على بصيرة من سائر المصالح التي تترتب على أداء الزكاة ، فلا شك أن موقفه سيتغير وأن تطبيقه سيرتقي ، وهكذا يقال في سائر التكاليف .

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية نماذج عديدة من هذا القبيل ، ينبغي الاعتبار بها ، والاقتداء بها في تنبيه المكلفين على مقاصد التشريع ، وحضهم بذلك على اتباعه وابتغاء

مقاصده ، فمن ذلك أيضاً التنبيه الوارد في قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

[النحل: ٩٨، ٩٩]

قال ابن عاشور : وجملته : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ تعليل للأمر بالاستعاذة من الشيطان عند إرادة قراءة القرآن وبيان لصفة الاستعاذة .

فأما كونها تعليلًا فلزيادة الحث على الامتنال للأمر بأن الاستعاذة تمنع تسلط الشيطان على المستعيز ؛ لأن الله منعه من التسلط على الذين آمنوا المتوكلين . والاستعاذة منه شعبة من شعب التوكل على الله ؛ لأن اللجأ إليه توكل عليه . « وفي الإعلام بالعلة تنشيط للمأمور بالفعل على الامتنال إذ يصير عالماً بالحكمة » ^(١) .

وفيما يلي أذكر مثالا واقعياً من سيرة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ، فبعد غزوة حنين قسّم النبي ﷺ الغنائم ، وكانت عزيمة

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/٢٤٦) .

جداً ، وقد أكثر ﷺ من العطاء لأهل مكة وغيرهم من المؤلفلة قلوبهم - وكان إسلامهم حديثاً جداً - ولم يعط الأنصار شيئاً ، فتأثر الأنصار لذلك ، حتى حسب بعضهم أن النبي ﷺ قد آثر قومه بالعطاء بعد أن عاد إليهم وعادوا إليه .

وفي رواية ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن سعد بن عباد - أحد زعمي الأنصار - دخل على النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفياء الذي أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيئاً ، قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » ، قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي ، فأمره بجمع الأنصار ، فلما اجتمعوا دخل عليهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « يا معشر الأنصار ، مقالةً بلغتني عنكم وجدةً وجدتموها علي في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟

وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » ، قالوا : بلى ، الله ورسوله آمن وأفضل . ثم قال : « ألا تحبونني يا معشر الأنصار ؟ » ، قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ الله ولرسوله المن والفضل ، قال : « أما والله لو شئتم لقاتم فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبًا فصدقناك ، ومخذولًا فنصرناك ، وطريدًا فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً ، وحظاً^(١) .

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠) ، وانظر : صحيح البخاري ، كتاب

فهؤلاء الأنصار ، الفضلاء الأخيار ، حين لم يدركوا مغزى ما فعله رسول الله استأثروا وتشوشوا ، وحين بين لهم ﷺ مقاصده ومراميه انشرحوا ورضوا واطمأنوا ، ولقد كان من الممكن أن يقال لهم : هذا حكم الله ورسوله فارضوا به وسلموا تسليماً ، وليس لكم أن تتقدموا ولا أن تتكلموا .

وهذا كلام صحيح لا غبار عليه ، ولكن حين يكون معزراً ببيان المقاصد والحكم ، ولا سيما في موارد الاستشكال والالتباس ، يكون أصح وأتم ، ويكون التصرف اللازم أنسب وأسلم : ﴿ قَالَ أُولَئِمُّ تَوَّابُونَ ﴾ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

حاجة الدعاة إلى معرفة مقاصد ما يدعون إليه :

وأما حاجة الدعاة إلى معرفة مقاصد ما يدعون إليه ، فذلك مما يقتضيه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

فأول ما يدخل في « الدعوة على بصيرة » هو أن يكون

الداعي بصيراً بما يدعو إليه ، ولا يكون بصيراً بما يدعو إليه إلا بقدر ما يعرف من مقاصده ومراميه ، وفي قوله ﷻ :

﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، ما يقتضي الإحاطة بمقاصد

ما ندعو إليه ، ومعرفة مواضعه ومراتبه ، وما يجوز تأخيره

وما لا يجوز ، وما يمكن التسامح فيه حتى حين ، وما لا

يمكن ، وهذا كله يستفاد من معرفة مقاصد الشريعة

والتمييز بينها وبين ما هو من قبيل الوسائل ، والتمييز بين

ما هو ضروري وما هو حاجي وما هو تحسيني من تلك

المقاصد .

كما أننا اليوم - في ظل التحديات الفكرية والثقافية

والإعلامية التي تواجهنا وتحاصرنا - أصبحنا أكثر اضطراباً

إلى أن نعرض على الناس ، ونشرح لهم مقاصد شريعتنا

ومحاسن ديننا ، فهذا هو الكفيل بإنصاف ديننا المفترى عليه ،

وإبرازه بما هو عليه وما هو أهله ، وهو الكفيل بدفع

الشبهات ورفع الإشكالات ، وإقامة الحجة كاملة ناصعة ،

ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيٍّ عن بينة .

ولأجل هذا كله فقد وجدت نفسي ملزماً بالاستجابة
للدعوة الكريمة التي جاءني من المعهد العالمي للفكر
الإسلامي ، لتحرير رسالة موجزة في مقاصد الشريعة ، وإنه
ليشرفني أن توجه إليَّ هذه الدعوة ، كما يشرفني أن يقبل ما
كتبته في عجالة وضيق من أمري ، فإن يكن فيه ما يفيد
فذلك فضل من الله الكريم ، وإن يكن غير ذلك فحسبي
أنني أجبت دعوة الداعي ، وفعلت ما استطعت ، شاكرًا
لأهل الدعوة دعوتهم ، ممتنًا لهم على حسن ظنهم .

كما لا يفوتني أن أسجل شكري وتقديري للأخ الأستاذ
أحمد عبادي على ما بذله من تشجيع ومساعدة لتحرير هذه
الرسالة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

